القرآن الكريم ونهيٌ أن يستفتى أحداً من أهل الكتاب فى أهل الكهف، ونهيٌ أن يقول عليه الصّلاة والسّلام لشيءٍ إنّه فاعله غداً إلاّ أن يشاء الله تعالى ويقرن قوله بالمشيئة أي يقول : إن شاء الله تعالى. فإذا نسي الإنسان قول إن شاء الله تعالى عليه أن يقوله حينما يذكره، وأن يسأل الله تعالى أن يهديه ليقرب من أمر أهل الكهف وكلّ أمر رشداً وهدى. ولبث أهل الكهف ثلاثمائة سنة شمسيّة، ثلاثمائة وتسع سنوات قمرية. ولمّا كانت مدّة اللّبث غير ذات أهمّيّة فى الدّين كان الإرشاد للنّبيّ ﷺ بأن يقول هو وسائر أفراد الأمّة المحمّديّة : الله تعالى أعلم بما لبثوا فى الكهف، له عزّ وجلّ غيب السماوات والأرض، ما أَبْصَرَ الله تعالى لكلّ موجود وأَسْمَعَه لكلّ مسموع . ليس للمخلوقات من دونه عزّ وجلّ من وليّ يتولىّ أمرهم، ولا يشرك جلّ وعلا فى حكمه أحداً من خلقه.

«اُتْلُ القرآن الكريم ، واصبر على ملازمة الفقراء ، وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين »
الآيات (٢٧ ـ ٣١)

بعد أن ذكرت السّورة الكريمة قصّة أصحاب الكهف مرّتين اثنتين، مرّةً فى إيجاز وأخرى فى شيءٍ من التّفصيل، عقّبت على القصّة بعددٍ من الآيات الكريمات، بين يدي التّحوّل إلى قصّة صاحب الجنّتين. والقرآن الكريم الّذى يقصّ الحقّ ويهدى السّبيل يتّجه اهتمامه الأكبر إلى النّوع من الحقّ الّذى ينفع النّاس فى الأولى والآخرة. ووراء ذلك هو يقول الحقّ، ويحدّد أبعاده، كيلا يحمّل النّاس ذلك النّوع من الحقّ ما لا يحتمل، مع وضع البديل الصّحيح وتبيين الحقّ الصّريح. لقد تبيّنّا أنّ السّورة الكريمة تكاد تكون قد صرّحت بعدّة أصحاب الكهف الصّحيحة. ولمّا كانت هذه العدّة تكاد تقف فائدتها عند التّنبيه إلى علم الله تعالى المحيط الّذى قرّرته الآية الكريمة، كان فى الآية الكريمة هذا التوجيه السّماوي : ﴿قل ربّى أعلم بعدّتهم مايعلمهم إلاّ قليل. فلا تمار فيهم إلاّ مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحدا﴾ وإنّ الشّيء ذاته يقال عن الآية التّعقيبيّة بعد تعيين

السّنوات الّتى قضاها الفتية فى الكهف. قال عزّ من قائل : ﴿قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السّماوات والأرض أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من وليٍّ ولا يُشْرِك فى حكمه أحدا﴾ ومن البيّن أنّ هذه الآية الكريمة بعد أن نبّهت إلى ثمرة الوقوف على حقيقة السّنوات الّتى قضاها الفتية فى الكهف وهي الإيماء إلى علم الله تعالى الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علماً، واصلت تعقيبها وإرشادها النّاس إلى ماينفعهم فى الأولى والآخرة، فعليهم الوقوف عند ماقرّره القرآن الكريم من عدد أصحاب الكهف وعدد سنوات لبثهم. والحقيقة أنّ كلّ الآيات الكريمات التّعقيبيّة على القصّة وراء ذلك هي من جنس الآيات التّعقيبيّة فى القرآن الكريم الّذى يهدى للطّريقة الّتى هي أقوم، ويرشد النّاس إلى ماينفعهم فى الأولى والآخرة، ويوجّههم إلى كلّ شأنٍ جليل الخطر.

إنّ السّياق يأمر المصطفى ﷺ فى المقام الأوّل بأن يتلو ما أوحى الله تعالى إليه من قرآن كريم، فلا مبدّل لكلمات الله تعالى لفظاً ومعنى، وليس لدى غير الله تعالى ملجأٌ للإنسان. كما يأمر السّياق المصطفى ﷺ كذلك بأن يحبس نفسه ويمسكها مع الّذين يعبدون الله تعالى بصدقٍ وإخلاص آناء اللّيل وأطراف النّهار يريدون وجهه جلّ وعلا وحده لا شريك له، وينهاه أن تتجاوز عينه أولئك الفقراء وتتخطّاهم إلى الأغنياء بباعث الميل إلى زينة الحياة الدّنيا الموجودة عند الأغنياء بإذن الله تعالى، كما ينهاه أن يطيع من أغفل الله تعالى قلبه عن ذكره جلّ وعلا ثمرةً نكدةً لاتّباعه هواه وإسرافه على نفسه وتفريطه فى جنب الله تعالى. ويأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يقول على رءوس الأشهاد : إنّ هذا القرآن الكريم هو الحقّ من ربّكم جلّ وعلا، وأنتم مسئولون وحدكم عما تأتون وتتركون، : ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ فإنّ الله سبحانه وتعالى أعدّ للظّالمين ناراً أحاطت بهم وضُربت عليهم. وإن يطلبوا الغوث من العطش يغاثوا بماءٍ شديد الحرارة كذائب المَعْدِن لفرط الحرارة، حتّى إنّه ليشوى الوجوه إذا دنا منها. بئس الماء الشّديد الحرارة شراباً، وساءت جهنّم مستقراً ومقيلا ومهادا.

أمّا الّذين آمنوا وعـملوا الصالحات فـإنّ الله سبحانه وتعـالى الّذى لا يضيع أجر من أحسن عملا سيدخلهم جنّاتٍ تجرى من تحتهم أنواع الأنهار، ويحلّون فيها من أساور من ذهب تزّين أيـديهم ومعاصـمهم، ويلبسـون ثياباً خضـراً من رقيق الدّيباج وصـفيقـه، متّكئين على السّرر المزيّنة بالفُـرُش فى القباب والبـيوت. نعم الثّواب وحَسُنت الجنّة مرتفقاً ومتّكئاَ.

ولّما كان من أسباب نـزول القرآن الكريم حثّ المصطفى ﷺ على أن يَصْبِر نفسه ويحبـسها مع فقراء المؤمنين ورفض طلب أغنياء المشـركين طرد فقراء المؤمنين كي يخلو لهـم الجلوس مع المصطفى ﷺ ويحلـو، فـقـد كـانت هذه الملابسـات مرشّحةً للتّحوّل إلى قصّة صاحب الجنّتين الأشِـر البَطِر المستكبر المتعالى على الفقير المؤمن، الشّاكّ فى البعث والنّشور والحساب، المشرك مع الله تعالى الأسباب.

« الهلاك يحيط بجنّة الكافر الفَرِح المختال الفخور »
الآيات (٣٢ ـ ٤٤)

يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يقدّم لكفّار مكّة المغرورين بثرائهم، المخدوعين عن حقيقـة أقدارهم باحتقار فقراء المؤمنين على جهـة الخصوص، وأن يضرب لهم مثلاً رجلين، أحدهما فقيرٌ مؤمنٌ مخبتٌ لربّه عزّ وجلّ، وآخرهما غنيٌّ مشركٌ فرحٌ مختالٌ فـخور. وقد جعل الله تعالى لذلك الكافر حديقـتين من أعنابٍ معروشاتٍ تغطّى بورقها العريض أرضَ الجنّة فى العادة، وعلى حافّة الجنّتين صفوف النّخيل، وبين الجنّتين وفى وسط الحديقـتين أنواع الزّروع. وقد أعطت كلتـا الجنّتين أكلها، ووهبت ثمرها، ولم تظلم من الأكل شيئاً بل جـادت بكلّ أنواع الثّمار. وقد فجّر الله تعالى فى أثناء الحديقتين نهراً يتلوّى، ومـاءً يتدفّق. وكان لصاحب الجنّتين ثمرٌ يدّخر منه ويبـيع إضافةً إلى الأكل منه. وبدلاً من أن يشكر لله تعالـى نعمه وآلاءه هو يقول لصاحبه فى أثناء مجادلتـه : ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفرا﴾ وكأنّ له يداً وفضلاً فى زيادة المـال والولد. ودخل الغنيّ الكافر جنّته مع الفقـير المؤمن، وبدلاً من الإخبات لله تعـالى هو يظلم نفسه ويقول : ﴿مـا أظنّ أن تبيد هذه أبدا﴾ ولم

يقف الظّالم عند هذا الحدّ إنّما تجاوزه إلى إنكار البعث والنّشور والحساب والجزاء. بل إنّ هذا الكافر المخدوع عن حقيقة قدره انحطّ إلى أبعد دركات الغباء حينما أعلن أنّه لو رُدَّ إلى الله تعالى على سبيل الافتراض فإنّه سوف يجد عند الله تعالى خيراً من جنّته فى الدّنيا بدلاً وعوضا، والدّليل على كرامته ورفيع منزلته عند الله تعالى تلك الجنّة الّتى يتقلّب آنذاك فى نعيمها. وتجاه هذا السّفه من الغنيّ الكافر يحاوره صاحبه الفقير المؤمن ويسأله فى إنكار : ﴿أكفرت بالّذى خلقك من تراب ثمّ من نطفةٍ ثمّ سوّاك رجلا﴾ لكنّ الفقير المؤمن يعلن على رءوس الأشهاد منادياً: ﴿هو الله ربىّ ولا أشرك بربىّ أحدا﴾ ويستمرّ فى نصح صاحبه الكافر المختال الفخور قائلا : هلاّ إذ دخلت حديقتك فأعجبتك قلت : ﴿ما شاء الله لا قوّة إلاّ بالله. إن ترَنِ أنا أقلَّ منك مالاً وولدا. فعسى ربّى أن يؤتين خيراً من جنّتك ويرسل عليها حسباناً من السّماء فتصبح صعيداً زلقا. أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا﴾ ومن البيّن أنّ إرسال العذاب من السّماء على الجنّة بباعث المحاسبة لصاحبها على مافرّط فى جنب الله تعالى حتّى تصبح الجنّة تراباً وأرضاً ملساء لا يثبت عليها قدم نوعٌ من العذاب الخارجيّ، وأنّ اتّجاه الماء فى الحديقة إلى أعماق الأرض نوعٌ من العذاب الدّاخليّ. وشاء الله تعالى أن يحيط الهلاك بالجنّة، ربّما فى صورتي العذاب الدّاخليّة والخارجيّة، فأصبح الكافر الغنيّ وقد صار فقيراً مُعْدِماً : ﴿يقلّب كفّيه على ما أنفق فيها وهي خاويةٌ على عروشها﴾ ويضرب كفّاً على كفٍّ ندامةً على خواء جنّته وخلوّها على عروشها فلم يبق من آثار الجنّة سوى تلك العروش الّتى تدلّ على الكروم الّتى كانت معلّقة عليها وما في حكم الكروم، وتلك الأعجاز الخالية من النّخل ومن الشّجر. وكما تمكّن البلىَ من النّخل والكروم تمكّن من سائر النّبات والزّروع. وكمَا عبّر الكافر عن ندمه بضرب إحدى كفّيه على الأخرى عبّر بلسانه عن تمنّيه أنّه لم يكن لحظةً من اللّحظات مشركاً بربّه جلّ وعلا شيئا، ولات ساعة مندم. إنّ هذا الكافر لم تكن له عشيرةٌ تنصره من دون الله تعالى وتمنع عنه عذابه جلّ وعلا، وما كان منتصراً بذاته مدافعاً بنفسه.

وهكذا يتأكّد فى الأولى والآخرة أنّ الولاية والنُصرة لله تعالى الحقّ جلّ وعلا وحده لا شريك له، وأنّ الرّجوع والمصير إليه عزّ وجلّ وحده لا شريك له، طوعاً وكرهاً، طوعاً فى حقّ المؤمن، كرهاً فى حقّ الكافر. إنّ الله تعالى عنده خير الثّواب وخير العاقبة، فعلى النّاس جميعاً أن يتّجهوا ويلجأوا إلى الله تعالى وحده لا شريك له، وأن يتوبوا إليه عزّ وجلّ توبةً نصوحا.

« الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، فينبغى عمل الصّالحات رجاء حسن الثّواب والنّجاة من العذاب »

الآيات (٤٥ ـ ٥٩)

الآيات التّعقيبيّة على قصّة صاحب الجنّتين المفتون بهما وبالدّنيا عموماً، المنصرف عن العمل للآخرة والمقصّر فى جنب الله تعالى تدور حول التّنبيه إلى حقيقة الدّنيا وأنّها إلى زوال، وإلى حقيقة الآخرة وأنّها دار البقاء، فينبغى العمل من أجلها صالح الأعمال التّى يراد بها وجه الله تعالى. إنّ السّياق يضرب مثل الحياة الدّنيا للمفتونين بها بأنّها كماء أنزله الله تعالى من السّماء فهو بطبعه ماءٌ حلو، فاختلط بسببه نبات الأرض وتشابك، ثمّ أصبح هشيماً جافّاً تذروه الرّياح ويطيره الهواء فى كلّ ناحية. وكان الله تعالى على كلّ شىء مقتدرا. أمّا زينة الحياة الدّنيا فإنّهما المال والبنون، وهما زائلان، أمّا الأعمال الصّالحات فإنّها هي الباقيات وهي خيرٌ عند ربّك جلّ وعلا ثواباً وخيرٌ أملاً ورجاءً فى فضل الله تعالى غير المحدود. وبناءً على ذلك ينبغى العمل ليوم القيامة الّذى يسيّر الله تعالى فيه الجبال، وتكون الأرض ظاهرةً لكلّ عين، ويحشر الله تعالى فى ذلك اليوم النّاس جميعاً فلا يغادَرُ أحدٌ منهم فى باطن الأرض، وسوف يُعْرَض النّاس جميعاً على ربّك العظيم صفّاً صفّا، ويقال لهم : لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرّةٍ فرادى حفاةً عراةً غُرْلا، بل زعمتم أنّا لن نجعل لكم يوم القيامة موعداً للحساب والجزاء. ووُضِع كتاب الأعمال، فترى المجرمين قد تملّكهم أشدّ الخوف ممّا هو مدوّنٌ فى ذلك الكتاب من سيّئات، ويقولون ياهلاكنا ما شأن هذا الكتاب لا يترك سيّئةً

صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها وعدّها عدّا : ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربّك أحدا﴾.

وبقصد التّحذير من اللّعين العدوّ اللّدود للإنسان يتحوّل السّياق إلى الحديث فى عداوة اللّعين لأبينا آدم عليه السّلام كي يأخذ بنو آدم حذرهم. إنّ السّياق يقول: واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تَحيّةٍ وتعظيم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ الّذين خُلِقوا من نار السّموم ففسق عن أمر ربّه جلّ وعلا وعصاه، بباعث الاستكبار والحسد. أفتتّخذون إبليس وذرّيّته يابنى آدم أولياء ونصحاء لكم من دون الله تعالى وهم عدوٌ لكم. بئس استبدال الظّالمين لولاية الله تعالى ولاية الشّيطان الرّجيم. إنّ الله تعالى ما أشهد اللّعين وذرّيّتَه خلق السّماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كان اللهتعالى الغنيّ متّخذا المضلّين عضداً وعونا. واذكر يوم يقول الله تعالى نادوا شركائي الّذين زعمتم فى الدّنيا أنّهم يشفعون لكم فى الآخرة فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعل الله تعالى بين الفريقين موبقاً ومَهْلِكاً، ربّما فى هيئة وادٍ فى جهنّم تأكيداً لضعف الطّالب والمطلوب. ورأى المجرمون النّار فأيقنوا أنّهم واقعون فيها ولم يجدوا ما يصرفهم عنها بسبب طاعة الشّيطان الرّجيم العدوّ اللّدود للإنسان.

لقد صرّف الله تعالى ونوّع فى هذا القرآن المجيد للنّاس من كل مَثَل : ﴿وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلا﴾ وما منع النّاس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى فى هيئة القرآن الكريم الموحى به إلى خير الأنام ﷺ إلاّ نفوسهم الخبيثة الّتى تحملهم على الإيمان حينما تأتيهم سنّة الله تعالى فى المكذّبين الأوّلين ويحقّ عليهم العذاب ووقتها لا ينفعهم الإيمان، وإلاّ عقولهم المعوجّة الّتى تحملهم على الاستهزاء بطلب العذاب الأليم العاجل بدلاً من سؤال الله تعالى الهداية إلى الصّراط المستقيم. إنّ الله سبحانه وتعالى مايرسل المرسلين إلاّ مبشّرين المؤمنين بالجنّة، ومنذرين الكافرين بالنّار، ويخاصم الّذين كفروا بباطلهم ليبطلوا به الحقّ، واتّخذوا آيات الله تعالى وما أنذروا هزواً وسخرية. إنّه لا أحد أظلم ممّن ذُكِر بآيات الله تعالى فأعرض عنها

فلم يأبه لها بقلبه وسَمْعِه ونسي ماقدّمت يداه من سوء. إنّ الله تعالى جعل على تلك القلوب المنصرفة أغطيةً لئلاّ تفقه معاني الكتاب العزيز، وفى آذان القوم صمماً لئلاّ يسمعوا القرآن الكريم أصلا. والثّمرة النّكدة لانصرافهم وزيادة الله تعالى قلوبهم انصرافاً وآذانهم صمماً أنّك : ﴿إن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا﴾ إنّ ربّك جلّ وعلا هو الغفور ذو الرّحمة الّذى يمهل ولا يهمل، ولو يؤاخذ النّاس بما كسبوا من سيئات لعجّل لهم العذاب فى الدّنيا. بل لهم موعدٌ فى الآخرة لن يجدوا من دونه موئلاً وملجأ. وتلك القرى الّتى أتتها سنّة المكذّبين الأوّلين إنّما أهلك الله تعالى أهلها لمّا ظلموا، وقد جعل الله تعالى لمهلكهم موعدا، فعلى الظّالمين فى كلّ زمانٍ ومكانٍ أن يأخذوا حذرهم، وإلا كان العذاب أليماً فى الأولى والآخرة.

« قصّة موسى عليه السّلام والخَضِر »

الآيات (٦٠ ـ ٧٤)

إذا كانت قصّة صاحب الجنتين مع صاحبه تشير إلى الصّراع بين من يؤمن بالأسباب، يقف عندها ولا يتعدّاها، وبين من يؤمن بالله تعالى مسبّب الأسباب، فإنّ قصّة موسى عليه السّلام مع الخضر الّذى آتاه الله تعالى علماً لدنّيّاً، تشير إلى كلٍّ من عالم الغيب، متمثّلاً فى الخضر، وعالم الشّهادة، متمثّلاً فى موسى عليه السّلام. إنّ الله تعالى آتى كلاًّ من هذين العبدين المصطفيين نوعاً من العلم لم يؤته الآخر. وقد تبيّن من أسباب النّزول أنّ موسي عليه السّلام لم يوكِلِ العلم إلى الله تعالى حينما سئل أيّ النّاس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، وأوحى إلى موسى عليه السّلام أنّ ثمّة عبداً لله تعالى هو أعلم منه، وأرشد الله تعالى موسى عليه السّلام إلى الطّريقة الّتى يتمّ بها الالتقاء بالعالم. وقد أشارت آخر آيات الجزء الخامس عشر من المصحف الشّريف إلى الشّقّ الأوّل من القصّة، وأشارت أولى آيات الجزء السّادس عشر إلى الشّقّ الآخر منها. إنّ السّياق يقول :

واذكر يامحمّد إذ قال موسى لفتاه يوشع بن نون فتاه وتلميذه والّذى أقامه الله تعالى نبيّاً خليفةً عن موسى بن عمران [1] يقول السيّاق : واذكر يامحمّد إذ قال موسى لفتاه لا أزال أسير حتّى أبلغ مجمع البحرين، وملتقى الماءين الكثيرين الواسعين أو أمضي فى سيرى زماناً ودهراً من أجل الالتقاء بالرّجل العالم. فلمّا بلغا مجمع البحرين نسيا حوتهما الّذى قفز من المكتل فى الماء، واتّخذ له فى البحر طريقاً ومسلكا. فلمّا جاوزا مجمع البحرين قال موسى لفتاه أوّل النّهار آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا تعبا. قال أرأيت حالنا إذ أوينا إلى الصّخرة فإنّى نسيت الحوت وما أنسانى الحوتَ إلاّ الشّيطانُ أن أذكره. وكان اتّخاذ الحوت له طريقاً فى البحر عجباً لموسى وفتاه. قال موسى : نسيانك الحوت هو الّذى كنّا نطلب لأنّه الدّليل على المكان الّذى سوف أجد فيه العالم. فارتدّ موسى وفتاه يقتصّان أثرهما وعلى حافرتهما. فوجدا عبداً من عباد الله تعالى الصّالحين، آتاه جلّ وعلا رحمةً من عنده، وعلّمه من لدنه علماً ووهبيّا. قال له موسى عليه السّلام فى أدب طالب العالم وتواضعه : هل تأذن لي بأن أتّبعك على أن تعلمني ممّا علّمك الله تعالى من الهدى والرّشاد. قال العالم إنّك لن تستطيع معي صبراً لأنّ الله تعالى آتاك علم الظّاهر وآتاني علم الباطن. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً من علم الباطن الّذى لم يؤتك الله تعالى إيّاه.

قال موسى : ستجدنى أيّها العالم إن شاء الله تعالى صابراً ولا أعصى لك أمراً مطلقاً. قال العالم : فإن اتّبعتنى فلا تسألنى عن شيءٍ حتّى أحدث أنا لك منه ذكراً بمبادرةٍ منّى. فانطلق موسى والعالم يسيران بمحاذاة السّاحل بحثاً عن سفينةٍ يركبانها حتّى إذا وجداها وركباها، وكان ذلك من دون أجرٍ لمعرفة أصحاب السّفينة الخَضِر، بادر الخَضِر إلى خرق السّفينة بإخراج لوحٍ بقَدومه فانفجر فيه موسى صارخاً: أخرقت السّفينة لتُغرق أهلها لقد جئت شيئاً عظيما. قال ألم أقل من ذى

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ تفسير ابن كثير ٢/ ٤٠ وهداية الحيارى فى أجوبه اليهود والنّصاري لابن القيّم ٥٢ من مطبوعات الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنّورة سنة ١٣٩٦هـ.

قبل : ﴿إنّك لن تستطيع معي صبرا﴾ قال موسى للعالم لا تؤاخذنى بسبب نسياني الشّرط الّذى اشترطتُه عليّ وقبلتُه، ولا تحمّلنى فى مصاحبتك ما لا أطيق من العسر فى أمرى والمشقّة فيما يبدر منى. فانطلق موسى والعالم يسيران بعد مغادرة السّفينة حتى إذا لقيا غلاماً فاق أقرانه الّذين يلعب معهم جمالاً وبهاءً قتله الخَضِر بأن احتزّ رأسه أو هشّمه بحجر. قال موسى فى انفعالٍ أشدّ منه فى المرّة الأولى : أقتلت نفساً طاهرةً بريئةً لم تبلغ حدّ التكليف بغير نفسٍ قتلتها. لقد جئت أمراً فظيعاً وشيئاً منكرا.

وسوف نتبيّن فى الجزء السّادس عشر إن شاء الله تعالى أنّ جواب الخَضِر فى هذه المرّة الثّانية أشدّ من جوابه فى المرّة الأولى تمشّياً مع تدرّج موسى عليه السّلام فى الإنكار والانفعال. إنّ أولى آيات الجزء السّادس عشر تزيد على الآية السّابقة المماثلة بالقول : ﴿لك﴾ قال عزّ من قائل : ﴿قال ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبرا﴾.

التفسير

(١)

« الحمد لله الّذى أنزل الكتاب على عبده ليبشّر المؤمنين بالجنّة وينذر الكافرين بالنّار، وليس على الرّسول إلاّ البلاغ »

الآيات (١ ـ ٨)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾

ولم يجعل له عِـوجا : العَوَج بفتح العين، يقال فـيما يدرك بالبصـر سهلاً كالخشب المنتصب ونحوه. والعِوج بكسر العين، يقال فيما يُدْرَك بالفكر والبصيرة، كما يكون فى أرضٍ بسيطٍ يُعْرَف تفاوته بالبصيرة، وكالدِّين والمعاش(١).

تبدأ سورة الكهف المكّيّة(٢) بالقول : ﴿الحمدلله﴾ وهى السورة الكريمة المكية الثالثة التى تبدأ بالقول الحمد لله بعد سورتي الفاتحة والأنعام المكّيّتين، ويأتى بعدها سورتا سبأ وفاطر، وهما مكيّتان كذلك وتبدآن بالقول : ﴿الحمدلله﴾وبذلك تكون كل السّور الخـمس الّتى تبدأ بالقول : ﴿الحمـدلله﴾ من المكّيّ من القرآن الّذى نزل قبل هجرة المصطفى ﷺ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة.

والآية الكريمة تقرّر أنّ الحمد كلّه، والثّناء جميعه، لله تعالى الّذى أنزل على عبـده محمّـد ﷺ الكتاب العـزيز، والقرآن المجيـد. ولم يجعل الله تعـالى لهذا الكتاب العـزيز عوجا، ولم يجعل فيـه اختلافاً ولا تناقـضا، بل جعل الاستـقامة سبيله، والاتّفاق والانسجام طبيعته، على نحو ماسوف تقرّره الآية الكريمة التّالية.

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة فى هذا المقام الكريم للمصطفى ﷺ الّذى ينزل فيه القرآن الكريم عليـه ﷺ تخلع عليه صفة العـبوديّة كي يتأكّد الفرق الـتّامّ والفصل الكامل بين المقـامين، بين مـقـام الألوهيّة، وبين مـقـام العـبـوديّة الّذى لا يمكن للبشـــر ألاّ أن يكـــونوا فـــيه، وفي مقدّمتهم خـــاتم النّبيّين وأشـــرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عوج» ٣٥١ وانظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٠.

قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

قيّما : معتدلاً مستقيما[١] .

لينذر بأساً : عذاباً[٢] وعنى بالبأس العذاب العاجل والنّكال الحاضر والسّطوة[٣] .

من لدنه : من عند الله[٤] .

بعد أن نفت الآية الكريمة السّابقة العِوج عن القرآن الكريم أثبتت له الآية الكريمة التّالية الاستقامة. والمراد الاستقامة المطلقة على النّهج القويم والصّراط المستقيم.

وتبيّن هذه الآية الكريمة التّالية الغاية من إنزال الله تعالى هذا الكتاب العزيز. إنّ الغاية أن ينذر ﷺ بهذا الكتاب العزيز الكافرين عذاباً شديداً من عند الله تعالى، ونكالاً أكيداً من لدنه جلّ وعلا، وأن يبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات ثواباً جزيلاً فى الجنّة، ونعيماً أكيداً ماكثين فيه دائماً وخالدين فيه أبداً، على نحو ماقرّرت الآية الكريمة الثّانية. وكما يخلد المؤمنون فى النّعيم المقيم بخلد الكافرون فى العذاب الأليم.

وتخصّ الآية الكريمة بالذّكر الّذين قالوا اتّخذ الله تعالى ولدا، وهم المشركون الّذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله تعالى وعبدوهم، والنصارى الّذين

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٦.
(٢) الجلالين.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٨.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٦.

قالوا المسيح ابن الله، واليهود الّذين قالوا عزيزٌ ابن الله.

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

كبرت كلمةً : كبر : فعل ماضٍ لإنشاء الذّمّ، والتّاء للتأنيث، والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره هي. كلمة : تمييز للضّمير الفاعل منصوب. والمخصوص بالذّمّ محذوف تقديره : مقالتهم المذكورة [1].

إن يقولون إلاّ كذبا : ما يقول هؤلاء القائلون : ﴿اتّخذ الله ولداً﴾ بقيلهم ذلك إلاّ كذباً وفريةً افتروها على الله[2].

تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين زعموا أنّ الله تعالى اتّخذ ولداً مالهم بما يهرفون به من علمٍ ولا لآبائهم : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم﴾ وعظمت كذْبةً تمرق من بين شفاههم. مايقولون إلاّ كذبا، ولا ينطقون إلاّ زورا، ولا يأتون إلاّ فجورا.

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

فلعلّك باخع : فلعلّك يا محمّد قاتلٌ نفسك ومهلكها[3] والبَخْع : قتل النّفس غَمّا[4] يقال منه : بخع فلانٌ نفسه يَبْخَعها بخعاً وبخوعا[5].

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١١٣.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٩.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٩.
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «بخع» ٣٨.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٢٩.

أسفا : الأسف الحزن والغضب معا. وقد يقال لكلّ واحدٍ منهما على الانفراد. وحقيقته ثَوَران دم القلب شهوةَ الانتقام. فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضبا. ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حُزْنا[1] ومن البيّن أنّ الأسف هنا بمعنى الحُزْن، وأنّه مفعولٌ لأجله منصوب[2].

الآية الكريمة تسلّى المصطفى ﷺ وتسرّى عنه، وهو الّذى يكاد يموت حزناً لإعراض قومه عن دعوته عليه الصّلاة والسّلام، ويهلك نفسه لانصرافهم عن القرآن الكريم وطلبهم آيات ماديّة تقلّ عن القرآن الكريم فى مجال الإقناع. إنّ الآية الكريمة بقصد نهيه ﷺ عن قتل نفسه لأجل الحزن والأسف لإعراض القوم عن دعوة الحقّ تقول له : لعلّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم مهلكٌ نفسك وقاتلٌ ذاتك على آثار قومك الّذين تركوا دعوة التوحيد وانصرفوا إلى الشّرك، والّذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب العزيز والقرآن الكريم. إنّ لسان الحال يقول : عليك البلاغ وحده وعلينا الحساب.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾

وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

صعيدا : عن قتادة : الصّعيد الأرض الّتى ليس فيها شجرٌ ولا نبات[3] والصّعيد يقال لوجه الأرض[4].

جرزا : أي منقطع النّبات من أصله[5] يقال جُرِزَت الأرض فهي مجروزة، وجرزها الجراد والنّعم، وأرضون أجراز إذا كانت لا شيء فيها[6].

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ على المصطفى ﷺ البلاغ وحده. وما دام

(١) مفردات الراغب الأصفهانى : « أسف » ١٧.
(٢) الجدول فى اعراب القرآن وصرفه ٨/ ١١٤.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٠.
(٤) مفردات الراغب الأصفهانى : «صعد» ٢٨٠.
(٥) مفردات الراغب الأصفهانى : «جرز» ٩١.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٠.

طريق الهدى واضح المعالم فإنّ المسئـوليّة وراء ذلك تقع على الإنسان، فإن أحسن فأسلم وعمل صـالحاً دخل الجنّة، وإن أساء فكفر، وليس بعـد الكفر ذنب، دخل النّار. إنّ الآيتين الكريمتين اللّتين نحن بصددهما تدوران حول هذه المعاني.

إنّ الآية الكريمة الأولى تقـرّر أنّ الله سـبحـانه وتعالـى جعل مـا على هذه الأرض من حيوانٍ ونباتٍ وجمـادٍ زينةً لها وفتنةً بها ليختبر الله تعـالى عباده فيعلم جلّ وعلا علم ظهورٍ أيّهم أحسن عملاً، وانصرافاً عن الدّنيا وإقبالاً على الآخرة، كي يثاب المحسن يوم القيامة ويعاقب المُسيء.

وإنّ الآية الكريمة الأخرى تشير إلى واحدٍ من علامـات السّاعة حينما يجعل الله تعالى مـا على الأرض صعيداً جُرُزا. أمّـا ظاهر الأرض فترابٌ مسـتوٍ بلقعٌ لا نبات فيه ولا شجر، وأما باطن الأرض فقد انقطع النّبات فيه من جذوره، فلا أمل في تغيّر الحال، أو صلاح الأحوال.

(٢)

« قصّة أصحاب الكهف العجيبة رمزٌ للموت والبعث »

الآيات (٩ ـ ١٢)

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾

أم حسبتّ : يا محمّد(١) .

أنّ أصحاب الكهف : أصحاب الغار فى الجبل(٢) .

والرّقيم : الرّاء والقاف والميم أصلٌ واحدٌ يدلّ على خطٍّ وكتابةٍ وما أشبه ذلك. فالرّقم : الخطّ. والرّقيم : الكتاب. والأرقم من الحيّات : ما على ظهره كالنّقشِ(٣) والرّقم : الخطّ الغليظ(٤) عن ابن عبّاس : الرّقيم الكتاب(٥) وقال سعيد بن جبير : الرّقيم لوحٌ من حجارةٍ كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثمّ وضعوه على باب الكهف(٦) .

كانوا من آياتنا عجبا : ليسوا أعجب آياتنا(٧) قال قتادة : قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك(٨) فإنّ خلق السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار وتسخير الشّمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدّالّة على قدرة الله تعالى وأنّه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيءٌ أعجب من أخبار أصحاب الكهف(٩) .

---

(١) تفسير الطبرى ١٥/ ١٣١.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣.
(٣) انظر مقاييس اللّغة لإبن فارس : «رقم» ٢/ ٤٢٥.
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «رقم» ٢٠١.
(٥) تفسير الطبرى ١٥/ ١٣٠ و تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣.
(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣ وتفسير الطبرى ١٥/ ١٣١.
(٧) تفسير الطبرى ١٥/ ١٣٠.
(٨) تفسير الطبرى ١٥/ ١٣١.
(٩) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٣ و تفسير الطبرى ١٥/ ١٣١.

تسأل الآية الكريمة الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وتقول له : بل أحسبت[1] يا محمّد أنّ أصحاب الكهف والكتاب أو اللّوح المدوّن فيه قصّتهم الفريدة كانوا أعجب آياتنا الدّالّة على قدرتنا؟ وإنّ لسان الحال ليقول مثلاً : إنّ خلق السّماوات والأرض أكبر من خلق النّاس وفيهم أصحاب الكهف وأعجب، وإنّ إيجاد الإنسان من عدمه أكبر ممّا جرى لأصحاب الكهف وأغرب. وإنّما كانت قصة أصحاب الكهف عجيبةً لغرابتها وإلاّ فإنّ خلق أصحاب الكهف أعجب من قصّتهم وأكبر.

إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

إذ : ظرف للزّمن الماضي متعلّقٌ بـ : عجبا. أو هو اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعلٍ محذوفٍ تقديره اذكر[2].

إذ أوى الفتية : يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّدٍ ﷺ : ﴿أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾ حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل هرباً بدينهم إلى الله[3] يقال : أَوَى إلى كذا انضمّ إليه يأوِي أُوِيّاً

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١١٦.
(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١١٧.
(٣) تفسير الطّبري ١٥/ ١٣٢.

ومأوى[1] والفِتية والفِتيان جمع الفَتَى وهو الطّريّ من الشّباب[2] .

من لدنك : من عندك[3] ومن قِبَلك[4] .

وهيّىء لنا : ويسّر لنا بما نبتغى وما نلتمس من رضاك والهرب من الكفر بك ومن عبادة الأوثان الّتى يدعونا إليها قومنا [5] .

رَشَدا : سداداً إلى العمل بالّذى تحب[6] .

فضربنا على آذانهم : الضَّرْب : إيقاع شيءٍ على شيء[7] وضَرَب الخيمةَ بضرب أوتادها بالمِطْرقة. وتشبيهاً بالخيمة قال[8] : ﴿ضُرِبت عليهم الذّلّة﴾ أي التحفتهم الذّلّة التحاف الخيمة بمن ضربت عليه. وعلى هذا [9] : ﴿وضربت عليهم المكسنة﴾ ومنه استُعير : ﴿فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا﴾ وقوله[10] : ﴿فَضُرِب بينهم بسور﴾[11] وقوله تعالى : ﴿فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا﴾ قال الزّجّاج : منعناهم السّمع أن يسمعوا. والمعنى : أنمناهم ومنعناهم أن يسمعوا، لأنّ النّائم إذا سمع انتبه. والأصل فى ذلك أنّ النّائم لا يسمع إذا نام[12] .

الآيات الكريمات مرتبطاتٌ بسابقتها. والمعنى : بل أحسبت يا محمّد أنّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا أعجب آياتنا حين أوى الفتية إلى الكهف ولجأ

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «أوى» ٣٤.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني :«فتى» ٣٧٢.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٢.
(٤) الجلالين.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٢.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٢.
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ضرب » ٢٩٤.
(٨) سورة آل عمران ١١٢.
(٩) سورة آل عمران ١١٢.
(١٠) سورة الحديد ١٣.
(١١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ضرب» ٢٩٥.
(١٢) لسان العرب: «ضرب».

الشّبّـان إلى الغار فى الجبل فِـراراً بدينهم فقـالوا ياربّنا آتنا من لدنك رحمـةً تسعنا وتشملنا وتنتشلنا ممّا نحن فـيه من كرب، وهيىء لنا مستقـبلاً من أمرنا رشداً ونوّر بصائرنا، وأهدنا سواء السّبيل.

والآية الكريمة التّالية تـقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قـد استجاب دعاء الفـتية المضطرين إليه جلّ وعـلا، فضرب عزّ وجل عـلى آذانهم فى الكهف سنين عدداً، للارتباط بين النّوم وبين تعطيل حاسّة السّمع.

ومع أنّ القول : ﴿فـضربنا على آذانهم﴾ معناه : أنمناهم. فلا تـخفى روعة التّعبير القرآنىّ، الّتى نذكر من صورها أنّ التّعبير القرآنيّ يعبّر عن النّوم بلازمه وهو تعطيل حاسّة الـسّمع، وبذلك عبّر هذا اللّازم عن الأصل، من ناحـية، ونبّه على حقيقـةٍ علميّةٍ من ناحيةٍ أخرى، فـسبحان الله تعالى القادر الخـالق البارىء المصوّر الّذى جعل ذهاب السّـمع دليلاً على النّوم وعودة السّمع دليـلاً على اليقظة. ومن صور الرّوعة أنّنا بصـدد استعارة عـمليّة الضّرب هنا، تلك الاستـعارة الّتى تذكّرنا بمثل القول: ضرب فلانٌ خيمته، والمعنى أنّه ضرب أوتاد خيمته كي تقف، والقول على المجاز قياساً على الحقيقة : ضُرِب على القوم الذّلّة والمسكنة، فكأنّهما خيمتان ضربت أوتادهما كي تقفا وتقوما.

وكأنّ القول : ﴿فضربنا على آذانهم﴾ ضربنا على آذانهم وأقـمنا عليها شيئاً من مظاهر قدرتنا فتعطّلت الآذان عن العمل فلا تسمع دليلاً على النّوم.

ونستطيع أن نفهـم صورةً أخرى من صور الرّوعة هي أنّ القـول : ﴿فضربنا على آذانهم﴾ يفيد أنّ النّوم موصولٌ طَوال الثلاثمائة سنةٍ الشّمسيّة، الثلاثمائة وتسع القمريّة. والله تعالى أعلم.

والآية الكريمة الثّالثـة تقرّر أنّ ربّ العزّة والجـلال قد بعث أولئك الفتـية من

نومهم الّذى طال، فكأنّه بعثٌ من موت، وكأنَ الكهف قبرٌ، ليعلم جلّ وعلا علم ظهور أيّ الحزبين المختلفين فى مدّة لبثهم، المؤمنين والكافرين، أحصى لما لبثوا فى الكهف أمدا، وأضبط لما مكثوا فى الغار زمناً، ووقتاً مقدّرا، ومدّةً لها حدٌّ مجهول(١)

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «أمد» ٢٤.

(٣)

« قصّـــــة أصـــــحاب الكـــهف ،
تفصـــــيلٌ بعـــد إجمال »
الآيات (١٣ ـ ٢٦)

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا
﴿١٦﴾

نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ : نحن يامحمّد نقصّ عليك خبر هؤلاء الفتية الّذين أووا إلى الكهف بالحقّ. يعنى بالصّدق واليقين الّذى لاشكّ فيه[1] .

وربطنا على قلوبهم : وألهمناهم الصّبر وشددنا قلوبهم بنور الإيمان حتّى عزفت أنفسهم عمّا كانوا عليه من خفض العيش[2] ويقال : فلانٌ رابط الجأش إذا قوي قلبه. وقوله تعالى : ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ وقوله[3] : ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ ﴿وليربط على قلوبكم﴾[4] فذلك إشارةٌ إلى نحو قوله[5] : ﴿هو الّذى أنزل السّكينة فى قلوب المؤمنين﴾ : ﴿وأيّدهم بروحٍ منه﴾ فإنّه لم

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٧.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٧.
(٣) سورة القصص ١٠.
(٤) سورة الأنفال ١١.
(٥) سورة الفتح ٤.

تكن أفئدتهم كما قال[1] : ﴿وأفئدتهم هواء﴾ وبنحو هذا النظر قيل : فلانٌ رابطُ الجأش[2] .

إذ قاموا : بين يدي ملكهم الجبّار دقيانوس إذا أمرهم بالسجود للأصنام[3]

لقد قلنا إذن شططا : غالياً من الكذب مجاوزاً مقداره فى البطول والغلو[4] والشَّطَط : الإفراط فى البعد. وعُبِّر بالشَّطَط عن الجور. قال : ﴿لقد قلنا إذاً شططا﴾ أي قولاً بعيداً عن الحق[5] .

لولا يأتون عليهم بسلطانٍ بيّن : هلاّ يأتون على عبادتهم إيّاها بحجّة بيّنة[6] .

فأووا إلى الكهف : فصيروا إلى غار الجبل[7] .

ينشر لكم ربّكم من رحمته : يبسط لكم ربّكم من رحمته بتيسيره لكم المخرج من الأمر الّذى قد رُميتُم به من الملك الكافر[8] .

ويهيّىء لكم من أمركم مِرْفقا : المرفق : ما استُعين به. وفى التّنزيل : ﴿ويهيىء لكم من أمركم مرفقا﴾ من قرأه مِرْفَقا جعله مثل مِقْطع، ومن قرأه مَرْفِقا جعله إسماً مثل مسجد[9] .

بعد أن تحدّثت الآيات الكريمات الأربع السّابقات عن قصّة أصحاب الكهف فى إجمال، وبيّنت الحكمة وراء القصّة، وهى البعث بعد الموت، ووجوب الإيمان

---

(١) سورة ابراهيم ٤٣.
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ربط» ١٨٦.
(٣) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٧ وتفسير ابن كثير ٣/ ٧٤ والجلالين.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٨.
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «شطط» ٢٦٠.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٨.
(٧) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٨.
(٨) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٨.
(٩) لسان العرب : «رفق».

بالبعث والعمل ليوم القيامة، تحوّل السّياق إلى الحديث عن قصّة أصحاب الكهف في شيء من التّفصيل.

إنّ ربّ العزّة والجلال يخاطب حبيبه المصطفى ﷺ ويقول له : نحن نقصّ عليك أيّها النّبيّ الكريم والرّسول العظيم، خبر أهل الكهف المهمّ المفيد، بالصّدق وباليقين الّذى لاشكّ فيه. إنّهم : ﴿فتيةٌ آمنوا بربّهم﴾ جلّ وعلا وحده لا شريك له، وأسلموا لله تعالى ربّ العالمين، وانشقّوا على قومهم عابدى الأصنام والأوثان، فزادهم الله تعالى هدىً إلى هداهم وآتاهم تقواهم. وقد ربط الله تعالى على قلوب الفتية وقوّى أفئدة الشّبّان المؤمنين إذ قاموا بين يدي ملكهم الطّاغية دقيانوس، ووقفوا أمام هذا الحاكم المشرك الّذى نهاهم عن التّوحيد وأمرهم بعبادة الأصنام والأوثان. لقد قال الفتية للملك الطّاغية : إنّ ربّنا الحقيقيّ هو ربّ السّماوات والأرض الّذى أبدع الكون على غير مثالٍ سابق، وإنّا لن ندعو من دونه إلهاً، ولن نعبد ربّاً سواه، لقد قلنا ـ لو فعلنا ذلك لا سمح الله ـ شططاً من القول، بعيداً عن الحقّ، جائراً عن سواء السّبيل.

ويقول الفتية عن قومهم المشركين عابدى الأصنام بأنّ هؤلاء القوم قد اتّخذوا من دون الله تعالى آلهةً يعبدونهم ويشركونهم مع الله تعالى فى العبادة. هلاّ يأتى أقوامهم على تلك المعبودات من دون الله تعالى بحجّةٍ بيّنةٍ ودليلٍ واضح. ولمّا كان القوم ليس عندهم أيّ دليلٍ على إتيانهم الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الشرك، فهم الظّالمون الّذين وضعوا العبادة فى غير موضعها، وهم الكاذبون على الله تعالى. ولا أحد أظلم ممّن افترى على الله تعالى كذباً بنسبة الشّريك إلى الله تعالى خالق كلّ شيء.

وشاء الله تعالى ألاّ يبطش الحاكم الظّالم بالفتية المؤمنين، وألاّ يقتلهم أو يسجنهم أو يعذّبهم، ربّما بسبب صغر سنّهم واعتبار قولهم وفعلهم من جنون الشّباب الّذى يفيقون منه عن قريب.

وشاء الله تعالى للفتية الّذين جاهدوا فى الله تعالى وهداهم جلّ وعلا سبيله

أن يواصلوا المشوار وهاهم أولاء يقول بعضهم لبعض : وإذ اعتزلنا قومنا وفارقناهم هم وما يعبدون إلاّ الله تعالى فلنأو ـ إلى الكهف، ولنلجأ إلى ذلك الغار الكبير المعروف لنا، فراراً بالدّين، وعضّاً عليه بالنّواجذ، ينشر لنا ربّنا جلّ وعلا من رحمته الّتى سوف تسعنا بفضله عزّ وجلّ وتشملنا فى الوقت الّذى نحن فيه أحوج الخلق إليها، ويهيّىء لنا ربّنا جلّ وعلا، فى المستقبل مِنْ أمرنا مِرْفَقاً نرتفق به ونستعين، ومِنْ حالنا رشداً نهتدى به ونستفيد.

ومن أهمّ ما يلاحظ على أصحاب الكهف أنّ فرارهم من قومهم كان بسبب الخوف على عقيدة التّوحيد أن تُمَسَّ بسوء، كما يلاحظ أنّ فرار أصحاب الكهف كان جماعيّاً، وأنّ توكلّهم على الله تعالى كان مطلقا. وبذلك نكون نحن المسلمين أمام عددٍ من الدّروس القرآنيّة المستفادة من قصّة أصحاب الكهف الشّبّان المسلمين لله تعالى ربّ العالمين، الّذين فرّوا أجمعين إلى الله تعالى من قومهم المشركين.

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

وترى الشّمس : يامحمّد(١) .

إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين : يعنى بقوله : ﴿تزاور﴾ تعدل وتميل، من الزَّور وهو العِوج والميل. يقال منه : فى هذه الأرض زور، إذا كان فيها اعوجاج، وفى فلان عن فلان ازورار إذا كان فيه عنه إعراض(٢) عن ابن عبّاس : ﴿تزاور عن كهفهم ذات اليمين﴾ يقول : تميل عنهم(٣) يميناً (٤).

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٩.

(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٩ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «زور» ٢١٧.

(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٩.

(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٩.

وإذا غربت تقرضهم ذات الشِّمال : القَرْض ضربٌ من القطع. وسمّي قطع المكان وتجاوُزُه قرضاً كما سمّي قطعا. قال : ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ أي تجوزهم وتَدَعُهُم إلى أحد الجانبين[1] عن ابن عبّاس : تميل عن كهفهم شمالا[2].

وهم في فجوةٍ منه : والفتية الّذين أووا إليه في متّسعٍ منه[3] وساحةٍ واسعة[4].

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ أصلاً وتقول له : وترى الشّمس أيّها الرّسول الكريم، والنّبيّ العظيم، إذا طلعت وأشرقت صباحاً تميل عن كهفهم يميناً وإذا زالت وغربت مساءً تتركهم شمالاً، وهم في ساحةٍ واسعةٍ من الكهف تتّسع لهم جميعاً كي يناموا ويتقلّبوا مرتاحين. وبذلك يكون بابُ الكهف من جهة الشّمال[5] فإذا طلعت الشّمس أخذ ظلّها يتقلّص بمقدار ارتفاعها وبذلك لا تدخل أشعّة الشّمس الكهف فيتأذّى الفتية، إنّما الّذى يدخل الدّفء وحده. وإذا زالت الشّمس واتّجهت نحو الغرب وأخذ ظلّها يمتدّ باطّراد تركتهم الشّمس شِمالاً ولم تدخل أشعّتها الكهف للحكمة ذاتها. وبسبب ساحة الكهف الواسعة يدخل إلى جوار دفء الشّمس الهواء العليل والنّسيم البليل.

وهكذا كان الكهف بإرادة الله تعالى صفةً وموقعاً هو المكان الصّحّيّ الملائم لأولئك الفتية كي يلبثوا فيه بإذن الله تعالى ثلاثمائة سنة شمسيّة، ثلاثمائة وتسع سنوات قمريّة. وطوال تلك السّنوات لم يحتج الكهف إلى أدنى صيانة بشريّة، تماماً كما لم يحتج قبلها ولن يحتاج بإذن الله تعالى بعدها. وهذه الصّفات هي لكلّ كهفٍ كبير، وكلّ غارٍ صغير. والله تعالى وحده لا شريك له هو الّذى يستطيع أن يفعل كلّ ذلك.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «قرض» ٤٠٠ وانظر لسان العرب : «قرض».
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٣٩.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٠.
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فجا» ٣٧٣.
(٥) انظر ـ مثلاً ـ تفسير ابن كثير ٣/ ٧٥.

وإنّ أصحاب الكهف الفتية وقصّتهم وملابسات قصّتهم من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته جلّ وعلا، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا. وإنّ الله لمع المحسنين﴾ وهكذا هدى الله تعالى الفتية أصحاب الكهف وزادهم هدىً. وهكذا يهدى الله تعالى من جاهد فى سبيّله عزّ وجلّ ويزيده هدى، وفى المقابل يضلّ الله تعالى من أعرض عن ذكره جلّ وعلا، واختار الضّلالة على الهدى، وليس لهذا الضّالّ، الوليُّ الّذى يتولّى أمره، ويرعى مصلحته ويهديه سواء السّبيل، إنّ الله سبحانه ،وتعالى وليّ المؤمنين المتّقين وهاديهم سبل الرّشاد.

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩.

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا
وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم
بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

وتحسبهم : وتحسب يامحمّد هؤلاء الفتية الّذين قصصنا عليك قصّتهم لو رأيتهم فى حال ضربنا على آذانهم فى كهفهم الّذى أووا إليه(١) .

أيقاظاً : الأيقاظ جمع يَقِظ(٢) يقال رجلٌ يقِظ أي متيقّظ حَذِر(٣) والَيَقَظة والاستيقاظ : الانتباه من النّوم. وأيقظته من نومه أي نبّهته فتيقّظ، وهو يَقْظان(٤).

وهم رقود: الرّقود جمع راقد كالجلوس جمع جالس والقعود جمع قاعد(٥) والرُّقاد والرُّقود : النّوم(٦) والرُّقاد المستطاب من النّوم القليل. يقال : رقد رُقوداً فهو راقد والجمع الرُّقود. قال تعالى : ﴿وهم رقود﴾ وإنّما وصفهم بالرُّقود مع كثرة منامهم اعتباراً بحال الموت وذاك انّه اعتقد فيهم أنّهم أموات، فكان ذلك النّوم قليلاً فى جنب الموت(٧) .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤١.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤١ واللّسان : «يقظ».
(٣) اللّسان : «يقظ».
(٤) اللّسان : «يقظ».
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤١.
(٦) اللّسان : «رقد».
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «رقد» ٢٠١.

ونقلبهم ذات اليمين وذات الشّمال : ونقلّب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرّة للجنب الأيمن ومرّة للجنب الأيسر[١] قال ابن عبّاس : لو أنّهم لا يقلّبون لأكلتهم الأرض[٢] .

وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد : قيل إنّه كان كلب صيدٍ لأحدهم[٣] والوصيد ، عن ابن عبّاس، الفِناء[٤] والباب[٥] وقيل غير ذلك وقد علّق الطّبريّ على ذلك الاختلاف بالقول[٦] : «وأولى الأقوال فى ذلك بالصّواب قول من قال: الوصيد الباب أو فناء الباب حيث يغلق الباب. وذلك أنّ الباب يوصد. وإيصاده إطباقه وإغلاقه. مِنْ قول الله عزّ وجلّ[٧] : ﴿إنّها عليهم مؤصدة﴾ وفيه لغتان . الأصيد وهي لغة أهل نجد. والوصيد وهي لغة أهل تهامة» فكان معنى الكلام : وكلبهم باسطٌ ذراعيه بفناء كهفهم عند الباب يحفظ عليهم بابه[٨] .

لولّيت منهم فرارا : لأدبرت عنهم هارباً منهم فارّا [٩].

ولملئت منهم رعبا : الرّعب : الانقطاع من امتلاء الخوف. يقال : رَعَبتُه فَرَعَبَ رُعْبا. ولتصوُّر الامتلاء منه قيل : رَعَبْتُ الحوض ملأته، وسيلٌ راعبٌ يملأ الوادى. وباعتبار القطع قيل : رَعَبْتُ السَّنام قطعته. وجاريةٌ رُعبوبة شابّةٌ، والجمع الرّعابيب[١٠] وهذه الآية الكريمة من سورة الكهف إحدى آياتٍ خمسٍ فى القرآن الكريم جاءت فيها لفْظة رعب. ومن البيّن أنّ لفظة الرّعب فى آية سورة الكهف تتّجه إلى جميع النّاس. وبشأن المواضع الأربعة الأخرى الّتى جاءت فيها لفظة

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤١.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤١.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٦.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤١.
(٥) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٢.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٢.
(٧) سورة الهمزة ٨.
(٨) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٢.
(٩) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٢.
(١٠) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «رعب» ١٩٧.

رعب اتّجه الحديث فى موضعين اثنين الى الكـافرين، وهما فى الآية الكريمة الثّانية عشـرة من سورة الأنفال فى قول الحقّ جـلّ وعلا : ﴿إذ يوحى ربّك إلى الملائكة أنّى معكم فثبّتوا الّذين آمنوا. سـأُلقِى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب فأضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان﴾ وفى الآية الكريمة الحادية والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿سنلقى فى قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركـوا بالله مالم ينزّل به سلطاناً ومـأواهم النّار وبئس مثـوى الظّالمين﴾ واتّجه الحديث فى مـوضعين اثنين إلى اليهـود ، وهما فى الآية الكريمة الثّانيـة من سورة الحشر فى قـول الحقّ جلّ وعلا : ﴿هو الّذى أخرج الّذين كفـروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر : مـاظننتم أن يخرجوا وظّنوا أنّهم مانعتـهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حـيث لم يحتسـبوا وقذف فى قلوبهم الرّعب يُخْـرِبون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فـاعـتبـروا يا أولى الأبصـار﴾ وفى الآية الكريمة السّادسـة والعشرين من سورة الأحـزاب فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صيـاصيهم وقذف فى قلوبهم الرّعب فريقـاً تقتلون وتأسرون فريقا﴾ وبذلك يتبيّن أنّ لفظة الرّعب لم تستعمل فى القرآن الكريم فى حقّ المؤمنين وحدهم مطلقا.

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ أساساً، كلّ إنسانٍ تبعاً وتقول : وتحسب أولئك الفتيـة الّذين فرّوا إلى الكهف بدينهم، وأنزل الله تعالى عليهم نوماً عـميقاً هنيئاً، وتحسبهم أيقاظاً قد انتبهوا لفورهم من نومهم وهم فى الحقيقة رقودٌ ونائمون نوماً هنيئاً مستطابا. ومن الأسباب الّتى تجعل من يراهم يحسبهم أيقاظاً تقليب الله تعالى لهم أجمعين، تارة على جنوبهم اليُـمْنى وتارةً أخرى على جنوبهم اليُسْرى. وهكذا دواليك. ووراء تقليب الله تعـالى لهم حكمة أخرى هي أنّهـم لو لم يقلّبوا لأكلتـهم الأرض بإذن الله تعالى. ونـستطيع أن نفـهم من تقليب الله تعـالى لهم الدّرس القرآنيّ العظيم فى وجوب الأخـذ بالأسباب وإلاّ فإنّ الله سبـحانه وتعالى هو مسبّب الأسباب ولا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء.

وكمـا أنام الله تعالى أصحـاب الكهف أنام كلبهم الّذى كان باسطاً ذراعـيه

بفناء الكهف ومادّاً يديه بالقرب من باب الكهف. ونستطيع أن نفهم أنّ الهيئة الّتى كان فيها الكلب تُعْطِى الانطباع بأنّ ساكنى الكهف من طبعهم الانتقال والسّفر، ربّما من أجل الصّيد أو الرّعي وما إلى ذلك، وبناءً على ذلك فمرورهم على الكهف عابر، وتركهم الكهف وشيك. وإذا كان تقليب أصحاب الكهف نوعاً من الحماية الدّاخلية فإنّ وجود الكلب عند الباب فى هيئة المتحفّز للوثوب ذبّاً عن أهله نوعٌ من الحماية الخارجيّة، وهذا درسٌ قرآنيٌّ آخر لنا نحن البشر فى وجوب الأخذ بالأسباب.

ووراء النّوعين السّابقين من الحماية ثمّة حمايةٌ ذاتيّةٌ خلعها الله تعالى على أهل الكهف حتّى يبلغ الكتاب أجله. إنّك لو اطّلعت عليهم ورأيتهم لولّيت منهم فِراراً لا تلوى على أحد، ولملئت نفسك بين جنبيك منهم أشدّ الخوف وأفظعه.

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ
لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

وكذلك بعثناهم : كما أرقدناهم بعثناهم صحيحةً أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة

وتسع سنين[١] .

ليتساءلوا بينهم : ليسأل بعضهم بعضا[٢] .

قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم : لأنّه كان دخولهم إلى الكهف فى أوّل نهار واستيقاظهم كان آخر نهار[٣].

فابعثوا أحدكم بورقكم هذه : الورق بسكون الرّاء وكسرها فيقال ورْق ووَرِق[٤] أي فضّتكم هذه[٥] ودراهمكم[٦] .

إلى المدينة أي مدينتكم الّتى خرجتم منها. والألف واللّام للعهد[٧] وتسمىّ أُفسوس[٨] بضمّ الهمزة وسكون الفاء والسّينان مهملتان والواو ساكنة : بلدٌ بثغور طرسوس[٩] جنوب تركيا على نهر طرسوس، توفّي ودفن بها المأمون الخليفة العبّاسي[١٠] .

فلينظر أيّها أزكى طعاماً : أي أطيب طعاماً[١١] وأصل الزّكاة النّموّ الحاصل عن بركة الله تعالى. يقال : زكا الزّرع يزكو إذا حصل منه نموٌّ وبركة. وقوله : ﴿أيّها أزكى طعاماً﴾ إشارةٌ إلى مايكون حلالاً لا يُستَوْخم عقباه[١٢] .

كما ضرب الله سبحانه وتعالى على آذان الفتية أصحاب الكهف وأرقدهم ثلاثمائة وتسع سنوات قمريّة بعثهم من نومهم وأيقظهم من سباتهم، ليسأل بعضهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٦.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٦.
(٤) الجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهانى : «ورق» ٥٢٠.
(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٧ والجلالين.
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ورق» ٥٢٠ وتفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٣.
(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٧.
(٨) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٢.
(٩) معجم البلدان : «أُفسوس» ١/ ٢٣١.
(١٠) الموسوعة العربيّة الميسّرة : «طرسوس» ١١٥٧.
(١١) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٧.
(١٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «زكا» ٢١٣.

بعضاً وليقول قائلٌ منهم: كم لبثتم فى الكهف، وكم مكثتم فى هذا الغار الكبير فى الجبل، بعيداً عن العيون والأرصاد.

ولمّا كان القوم قد دخلوا الكهف أوّل النّهار واستيقظوا آخره فقد كان الجواب الطبيعيّ من بعضهم أنّهم لبثوا يوماً أو بعض يوم. واليوم يُعبَّر به عن وقت طلوع الشّمس إلى غروبها[1] لقد كان جزءٌ من أوّل النّهار قد مضى حينما دخلوا الكهف ورقدوا، وكان جزءٌ من آخر النّهار قد بقي بعد استيقاظهم لذا استدركوا بأنّ لبثهم فى الكهف كان بعض يوم.

وكأنّ أصحاب الكهف قد أدركوا ، بإلهامٍ من الله تعالى، أن مدّة لبثهم قد تكون أطول ممّا قدّروا، لذا أوكلوا العلم بحقيقة اللّبث فى الكهف إلى الله تعالى : ﴿قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم﴾ وبكلّ تأكيد لم يخطر ببال واحدٍ من الفتية أنّ فترة النّوم فى الكهف كانت تدنو من الأسبوع الواحد فضلاً عمّا وراء ذلك.

ولمّا كانت حاجة الفتية إلى الطّعام شديدةً فقد تجاوزوا الحديث عن مدّة اللّبث فى الكهف بعد أن أوكلوا العلم بحقيقتها إلى الله تعالى، تجاوزوا الحديث عن مدّة اللّبث إلى الحصول على الطّعام، فبادروا إلى بعث واحدٍ منهم، بدراهمهم الفضّيّة المضروبةعلى عهد دخولهم الكهف، إلى مدينتهم كي ينظر أيّها أزكى طعاماً وأطيب فيأتيهم برزقٍ منه. ولا ينسى الفتية أن يوصوا من بعثوه منهم من أجل الحصول على الطّعام أن يكون لطيفاً فى تعامله مع الآخرين، حريصاً على ألاّ يُشْعِرَ أحداً من النّاس بالمكان الّذى فيه الفتية.

ويقرّر الفتية العملين البشعين اللّذين يقوم بهما الطّغاة فى كلّ زمانٍ ومكانٍ حينما يظهرون على المؤمنين بإذن الله تعالى، أن يقتلوهم، رجماً بالحجارة حتّى الموت، أو بأيّ وسيلةٍ أخرى، أو أن يعيدوهم فى ملّتهم، ويرجعوهم عن الإيمان إلى الكفر. ولمّا كان من شرح بالكفر صدراً عليه غضبٌ من الله تعالى وله عذابٌ عظيم، فإنّ الفتية يجيء على لسانهم القول : ﴿ولن تفلحوا إذن أبدا﴾ ونستطيع

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «يوم» ٥٥٣.

أن نفهم أنّ هذا القول : ﴿ولن تفلحوا إذن أبدا﴾ يتعلّق بالارتداد ـ لا سمح الله ـ عن دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به جميع النّبيّين والمرسلين. والمعروف أنّ الفتية من أتباع عيسى عليه السّلام. والله أعلم.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۗ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

وكذلك أعثرنا عليهم : وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم ساعة رقدوا ليتساءلوا بينهم فيزدادوا بعظيم سلطان الله بصيرة، وبحسن دفاع الله عن أوليائه معرفة، كذلك أعثرنا عليهم، يقول : كذلك أطلعنا عليهم الفريق الآخر الّذين كانوا فى شكٍّ من قدرة الله على إحياء الموتى، وفى مرْيةٍ من إنشاء أجسامِ خَلْقه كهيئتهم يوم قبضهم بعد البلى فيعلموا أنّ وعد الله حقّ، ويوقنوا أنّ السّاعة آتيةٌ لا ريب فيها[1] يقال : عَثَر الرّجل يعثُر عِثاراً وعُثوراً إذا سقط. ويُتَجوَّز به فيمن يطّلع على أمرٍ من غير طَلَبه، قال تعالى[2] : ﴿فإن عُثِرَ على أنّهما استحقّا إثماً﴾ يقال : عَثَرْتُ على كذا. قال : ﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ أي وَقَفْناهم عليهم من غير أن طلبوا [3].

فقالوا ابنوا عليهم بنياناً : سدّوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم[4] وهذا هو قول المشركين[5] .

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٩.
(٢) سورة المائدة ١٠٧.
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عثر» ٣٢٢.
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٨.
(٥) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٩.

قال الّذين غلبوا على أمرهم لنتّخذنّ عليهم مسجدا : يقول الطّبرى[1] : «وقال المسلمون : بل نحن أحقّ بهم، هم منّا، نبنى عليهم مسجداً نصلّى فيه، ونعبد الله فيه» ويقول ابن كثير[2] : «والظاهر أنّ الّذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنّفوذ، ولكن : هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأنّ النّبيّ ﷺ قال: لعن الله اليهود والنّصارى، اتّخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. يحذّر مافعلوا. وقد رَوَيْنا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه لمّا وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق أمر أن يُخْفَى عن النّاس، وأن تُدْفَنَ تلك الرّقعة الّتى وجدها عنده فيها شيءٌ من الملاحم وغيرها» .

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال كما بعث أهل الكهف من رقدتهم الّتى طالت أعثر النّاس عليهم، وأطلع ذراري قومهم عليهم. ونستطيع أن نفهم من مجيء جملة : ﴿أعثرنا عليهم﴾ الّتى تفيد أنّ العثور على أصحاب الكهف كان من قبيل المصادفة والمفاجأة غير المتوقعة، نستطيع أن نفهم أنّ هذا العثور كان بعد يأس السّابقين الجادّين فى طلب أهل الكهف من العثور عليهم بعد أن استنفدوا طاقتهم فى البحث عنهم. وسبق أن عرفنا أنّ الفتية قد ربط الله تعالى على قلوبهم حينما وقفوا بين يدي ملكهم المشرك فقالوا كلمة الحقّ، وأعلنوا دعوة الصّدق.

ونستطيع أن نفهم من الآية الكريمة أنّ الصّراع بين الإيمان والكفر الّذى كان محتدماً بين المؤمنين، ويمثلهم الفتية أصحاب الكهف، وبين الكافرين، ويمثّلهم الحاكم آنذاك، ظلّ محتدماً حتّى العثور على أصحاب الكهف. ولكنّ ثمّة خلافاً جوهريّاً بين الموقفين والفترتين، حينما أوى الفتية إلى الكهف، وحينما بعثوا أحدهم بدراهمهم كي يحضر لهم طعاماً حلالاً طيّبا. لقد كانت الكلمة للمشركين حينما أوى الفتية إلى الكهف فِراراً بدينهم، ولكنّها أصبحت للمسلمين حينما بعث الله تعالى أهل الكهف من رقدتهم وأعثر النّاس عليهم.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٨.

ويبدو من الآية الكريمة أنّ قضيّة البعث بعد الموت إحدى القضايا الحيويّة الّتى احتدم بشأنها الخلاف بين المؤمنين والكافرين. وإنّ بعث الله تعالى أصحاب الكهف بعد طول النّوم دليلٌ على البعث بعد الموت، وعلى قدرة الله تعالى على إعادة الخلق الّذى بدأه جلّ وعلا، وعلى أنّ البعث بالرّوح والجسد معاً.

وتشير الآية الكريمة إلى النّزاع الّذى حصل بشأن أصحاب الكهف بين المؤمنين والكافرين على كيفيّة التّعامل مع أصحاب الكهف بعد أن توفّاهم الله تعالى أجمعين، وذلك من جنس الخلاف بين الفريقين بشأن قضيّة البعث بعد الموت. إنّ المشركين يتحمّسون لأصحاب الكهف بباعث النّسب فيقترحون أن يشاد على باب الكهف بنيانٌ يسدّه، فَرَبُّ أصحاب الكهف أعلم بهم وبحقيقة اعتقادهم. وإنّ المسلمين الّذين كانت بيدهم مقاليد الأمور يتحمّسون لأصحاب الكهف بباعث الإيمان فى المقام الأوّل، فيقرّرون بأنّهم هم الّذين سوف يباشرون عمليّة بناء مسجد على أصحاب الكهف، والمراد بالمسجد هنا الكنيسة، فإنّ هؤلاء الفتية من أتباع عيسى عليه الصّلاة والسّلام وعلى دينه.

وإن العدول فى هذه الآية الكريمة عن استخدام لفظة كنيسة أو أيّ لفظة أخرى تدلّ على مكان العبادة فى المسيحيّة، إلى استعمال لفظة مسجد، الّتى تدلّ على مكان العبادة فى الاسلام وحده، إنّ هذا العدول أمرٌ غايةٌ فى الأهميّة والخطورة، ينبغى أخذ الدّروس والعبر منه.

ونبادر إلى القول، بأنّا قد سبق لنا أن وقفنا مليّاً عند هذا العدول فى القرآن الكريم عن استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى كلٍّ من اليهوديّة والنّصرانيّة إلى استعمال لفظ المسجد الدّال على مكان العبادة فى الإسلام. وكان الوقوف عند هذا العدول على النّحو التّالى، مع مراعاة التّرتيب التّاريخيّ.

١ ـ فى الكتاب بعنوان : تأمّلاتٌ فى سورة الإسراء[1] الّذى كتبت مقدّمته في ١٩/ ٦/ ١٣٩٥هـ دراسة بعنوان : الحكمة من استعمال لفظة مسجد، فى

(١) القاهرة ١٩٧٨م.

الصفحات ٤٤ـ٤٨ والمراد استعمال الآية الكريمة السّابعة من سورة الإسراء لفظ مسجد والعدول عن استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى اليهوديّة، وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها. فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّةٍ وليتبّروا ماعلوا تتبيرا﴾.

٢ ـ ثمّة دراسة خاصّة بهذه المسألة كُتِبَتْ مقدّمتها فى ١٩/ ١٢/ ١٤٠٥هـ وهي بعنوان : معانٍ أُخَر للفظة مسجد فى القرآن الكريم[١] وتدور الدّراسة حول الآيات الكريمات الّتى جاء فيها استعمال لفظ مسجد استعمالاً خاصّاً وفريدا.

٣ ـ فى الكتاب بعنوان : تأمّلاتٌ فى سورة البقرة[٢] الّذى كُتِبَتْ مقدّمته فى ١٠/ ٣/ ١٤٠٩هـ دراسة للآية الكريمة الرّابعة عشرة بعد المائة من سورة البقرة فى الصّفحات ٦٥٣ـ٦٦٨ من المجلّد الأوّل. وتبدأ الآية الكريمة بالقول : ﴿ومن أظلم ممّن منَعَ مساجد الله أن يُذْكَرَ فيها اسمه وسعى فى خرابها . . .﴾

وإليك موجز تلك الدّراسات فى سطور :

١ ـ القرآن الكريم يذكر أماكن العبادة فى الدّيانات السّماوية. جاء فى سورة الحج[٣] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿إنّ الله يدافع عن الذّين آمنوا. إنّ الله لا يحبّ كلّ خوّان كفور. أُذِن للّذين يقاتلون بأنّهم ظُلموا. وإنّ الله على نصرهم لقدير. الّذين أخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا ربُّنا الله. ولولا دفع الله النّاسَ بعضهم ببعضٍ لهدّمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرا. ولينصرنّ الله من ينصره. إنّ الله لقويٌّ عزيز. الّذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. ولله عاقبة الأمور﴾ ومعنى القول : ﴿ولولا دفع الله النّاس بعضهم ببعضٍ لهدّمت صوامعُ وبيَعٌ وصلواتٌ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾ المعنى : ولولا دفع الله سبحانه وتعالى

---

(١) مجلة التّضامن الإسلامي رمضان ١٤٠٦هـ ـ جمادى الثّانية ١٤٠٧هـ.

(٢) القاهرة ١٩٩٢م.

(٣) الآيات ٣٨ـ٤١.

الكافرين بالمؤمنين وتسليطه جلّ وعلا المؤمنين على المشركين لما بقى لرهبان النّصارى صوامع، ولا لعامّتهم كنائس، ولا لليهود صلوات بمعنى أماكن عبادتهم، ولا للمسلمين مساجد. وهكذا يذكر القرآن الكريم أسماء الأماكن لعبادة اليهود والنّصارى والمسلمين.

٢ ـ تمّ فى الآية الكريمة السّابعة من سورة الإسراء العدول عن استعمال لفظ العبادة فى اليهوديّة إلى استعمال لفظ العبادة فى الإسلام، أعنى لفظ المسجد. جاء خطاباً لبنى اسرائيل قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها. فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّةٍ وليتبّروا ماعلوا تتبيرا﴾ والآية الكريمة تقول لبنى إسرائيل أتباع موسى عليه السّلام : إن أحسنتم بتطبيق تعاليم التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام أحسنتم لأنفسكم لأنّ فى طاعة الله تعالى عزّ الأولى والآخرة. وإن أسأتم بأن عصيتم فعليكم وحدكم سوء العاقبة فى الأولى والآخرة. فإذا جاء وعد المرّة الآخرة الّتى تفسدون فيها فى الأرض سلّط الله تعالى عليكم عباداً له جلّ وعلا وجنداً من جنوده ليسوموكم الخسف، حتّى يتجلّى هوان الذّلّ على ملامحكم، الّتى تعكس السّوء الّذى حلّ بكم، فامتلأت به نفوسكم، وهاهي ذى آثاره على وجوهكم، وليدخلوا مسجد بيت المقدس قهراً منهم لكم وغلبة، كما دخلوه أوّل مرّة حين أفسدتم الفساد الأوّل فى الأرض[١] .

وهكذا يعبّر عن مكان العبادة فى اليهوديّة بالمسجد، لأنّ ثمّة مندوحةً وسَعَةً للعدول عن مكان العبادة فى اليهوديّة ، ولأنّ المقصود هنا ذكر مكان العبادة مطلقاً، وكان ذكر المسجد هو الأحرى والأَوْلى.

والآية الكريمة تشير إلى الانتقام من بنى إسرائيل مرّتين اثنتين عقاباً لهم على عتوّهم وبغيهم. وبشأن المرّة الآخرة يشار إلى عمليّة دخول أعداء بنى إسرائيل المسجد. مع استعمال لفظ المسجد بصريح اللّفظ، وبشأن المرّة الأولى يشار إلى

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ١٥/ ٣٤.

عمليّة دخول الأعداء المسجد وذلك باستعمال اسم الضّمير : ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة﴾ فثّمة دخولان للأعداء مكان العبادة لليهود فى القدس. وقد أشير إلى المرّة الآخرة باستعمال لفظ المسجد، وأشير إلى المرّة الأولى باستعمال اسم الضّمير العائد الى المسجد.

وهكذا يكون فى الآية الكريمة عدولان عن استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى اليهوديّة إلى ستعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى الإسلام، مرّةً بصريح اللّفظ، ومرّةً أخرى باستعمال اسم الضّمير.

وجمهور العلماء يرون أنّ مرّتي الإفساد من بنى إسرائيل وانتقام الله تعالى منهم كلّ مرّة قد مرّتا وانقضتا قبل الإسلام. فى المرّة الأولى كان الانتقام على يد بختنصّر المجوسّي من بابل. وفى المرّة الثّانية على يد ملك الرّوم قيصر(١).

٣ ـ تمّ فى الآية الكريمة الحادية والعشرين من سورة الكهف العدول عن استعمال لفظ العبادة فى النّصرانيّة إلى استعمال لفظ العبادة فى الإسلام، أعنى لفظ المسجد. جاء عن الفتية أصحاب الكهف قول الحق جلّ وعلا : ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنّ وعد الله حقٌّ وأنّ السّاعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربّهم أعلم بهم. قال الّذين غلبوا على أمرهم لنتّخذنّ عليهم مسجدا﴾ لقد كان الفتية أصحاب الكهف على دين عيسى عليه السّلام. وإنّ المؤمنين الّذين كانت بيدهم مقاليد الأمور بفضل الله تعالى يعلنون على رءوس الأشهاد أنّهم سوف يبنون على قبور أصحاب الكهف مسجداً ، أي كنيسةً أو بِيعة.

٤ ـ جاء فى الآية الكريمة الرّابعة عشرةَ بعد المائة من سورة البقرة لفظ المساجد فى صيغة الجمع. قال عزّ من قائل : ﴿ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ منع مساجد الله أن يُذْكَرَ فيها اسمه وسعى فى خرابها. أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين. لهم فى الدّنيا خزيٌ ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم﴾ والمعنى : لا أحد

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٣٨٣٨ والبحر المحيط ٦/ ٩.

أظلم ممّن منع مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه جلّ وعلا وسعى فى خرابها من الوجهتين المعنويّة بتعطيل مهمّتها، والماديّة بهدمها وتخريبها. أولئك ما كان لهم أن يدخلوا تلك المساجد، لو فُرِض أنّهم تمكّنوا من مجرّد دخولها، إلاّ والخوف ملء قلوبهم وثيابهم من المؤمنين الأعزّة على الكافرين فكيف يصحّ لأولئك الظّالمين المفسدين فى الأرض أن يعطّلوا مساجد الله تعالى لولا نكوص المؤمنين عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، وخيانتهم الأمانة، واستمراؤهم الذّلّ والهوان. إنّ أولئك الظّالمين لهم فى الدّنيا خزيٌ، على أيدى عباد لله تعالى يجاهدون فى سبيله جلّ وعلا ولا يخافون لومة لائم، يسلّطهم الله تعالى على أولئك الظّالمين المعتدين على بيوت الله تعالى، ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيمٌ فى النّار وبئس القرار.

ولمّا كان السّياق الّذى جاءت فيه الآية الكريمة من سورة البقرة يتحدّث عن اليهود والنّصارى والّذين لا يعلمون، وهم مشركو العرب فى المقام الأوّل، كان ثمّة عدة آراء بشأن الظّالمين الّذين منعوا مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه جلّ وعلا وسعوا فى خرابها. وقد أوجز القرطبيّ فى تفسيره هذه الآراء وهى ثلاثة. يقول رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[1]: «وأراد بالمساجد هنا بيت المقدس ومحاريبه. وقيل الكعبة، وجمعت لأنّها قبلة المساجد، أو للتّعظيم. وقيل: المراد سائر المساجد، والواحد مسجد بكسر الجيم، ومن العرب من يقول مسجَد بفتحها».

ومن المفسّرين الّذين ذهبوا إلى الرّأي القائل بأنّ الآية الكريمة تشير إلى النّصارى الّذين أعانوا بختنصّر البابلى المجوسيّ على تخريب بيت المقدس الإمام ابن جرير الطّبرى. وهذا الرّأي يُنْسَب أساساً إلى ابن عبّاس[2] وسبق أن عرفنا أنّ فى آية سورة الإسراء عدولاً عن استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى اليهوديّة إلى استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى الاسلام.

---

(١) تفسير القرطبي ٤٦٤.

(٢) تفسير الطّبرى ١/ ٣٩٧.

ومن المفسّرين الّذين ذهبوا إلى الرّأي القائل بأنّ الآية الكريمة تشير إلى مشركى قريش الّذين منعوا عام الحديبية المصطفى ﷺ والمؤمنين من الصّلاة فى المسجد الحرام الإمام الحافظ ابن كثير. وهذا الرأي يُنسب إلي ابن عبّاس كذلك[1]

ومن المفسّرين الّذين ذهبوا إلى الرّأي القائل بأنّ الآية الكريمة تشير إلى من منع مِنْ كلّ مسجد إلى يوم القيامة الإمام القرطبيّ. فبعد أن أشار القرطبيّ إلى الرّأيين الأوّلين قال[2] «وقيل : المراد من مَنَع من كلّ مسجدٍ إلى يوم القيامة وهو الصّحيح، لأنّ اللّفظ عامٌّ ورد بصيغة الجمع. فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف. والله تعالى أعلم».

ولمّا كان السّياق يتحدّث عن اليهود والنّصارى، والّذين لا يعلمون، وفى مقدّمتهم مشركو العرب، فإنّ كلاًّ من الآراء الثّلاثة محتَمَلٌ وجائز.

ومن البيّن أنّ الرّأى الّذي يذهب إلى أنّ الآية الكريمة تشير إلى النّصارى الّذين أعانوا بختنصّر البابليّ ضدّ اليهود يرى أنّ فى الآية الكريمة عدولاً عن استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى اليهوديّة إلى استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى الإسلام، وذلك على غرار الآية الكريمة السّابعة عن سورة الإسراء.

٥ ـ الحكمة من عدول القرآن الكريم عن استعمال الألفاظ الدّالّة على أماكن العبادة فى اليهوديّة والنّصرانيّة إلى استعمال اللّفظ الدّالّ على مكان العبادة فى الإسلام تقديم الدّليل الجديد والأكيد على أنّ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ ناسخٌ لكلّ دينٍ سماويّ سواه، ومن باب الأحرى غير السّماويّ، وعلى أنّ القرآن الكريم مهيمنٌ على الكتاب قبله، وعلى أنّ خاتم النبيّين وأشرف المرسلين، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، هو الوارث الشّرعيّ لمقدّسات النّبيّين السّابقين، وفى مقدّمتها القدس الشّريف والمسجد الأقصى، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشّريفين ومسرى نبيّنا محمّد ﷺ . جاء فى سورة

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٥٦.

(٢) تفسير القرطبي ٤٦٥.

الإسراء[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿سبحان الّذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذى باركنا حوله لنريه من آياتنا. إنّه هو السّميع البصير﴾ إنّ على المسلّمين لله ربّ العالمين أن يعوا هذه الحقيقة جيّداً، وأن يعملوا كلّ ما فى وسعهم من أجل استرداد القدس الشّريف وفلسطين وسائر المقدّسات الإسلاميّة. نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً سواء السّبيل. آمين.

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

سيقولون : سيقول بعض الخائضين فى أمر الفتية من أصحاب الكهف[2].

رجماً بالغيب : قذفاً بالظّنّ غير يقين[3] والرّجم فى الأصل الرّمي بالرِّجام، بكسر الرّاء، بمعنى الحجارة، واحدتها رُجْمة، بضمّ الرّاء وسكون الجيم. ويستعار الرّجم للرّمي بالظّنّ والتّوهّم وللشّتم والطّرد[4].

وثامنهم كلبهم : الواو لإفادة توكيد لصوق الصّفة بالموصوف[5].

ما يعلمهم إلاّ قليل : عن قتادة : قليلٌ من النّاس[6] وكان ابن عبّاس يقول: أنا مِنْ أولئك القليل الّذين استثنى الله. كانوا سبعة وثامنهم كلبهم[7].

---

(١) سورة الإسراء ١.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٩.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٤٩.
(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «رجم» ١٩٠.
(٥) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١٣٤ والجلالين.
(٦) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٠.
(٧) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٠.

فلا تمار فيهم : فلا تجادل يا محمّد أهل الكتاب فيهم، يعنى فى عدّة أهل الكهف. وحذفت العدّة، اكتفاءً بذكرهم فيها، لمعرفة السّامعين بالمراد [1].

إلاّ مراءً ظاهرا : عن ابن عبّاس : حسبك يا محمّد ما قصصت عليك فلا تمار فيهم[2].

ولا تستفت فيهم منهم أحدا : ولا تستفت فى عدّة الفتية من أصحاب الكهف منهم، يعنى من أهل الكتاب أحداً، لأنّهم لا يعلمون عدّتهم، وإنّما يقولون فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول[3].

تتحدّث الآية الكريمة عن النّاس المختلفين فى عدد أهل الكهف، من أهل الكتاب وسواهم. إنّ ثمّة من يقول : هم ثلاثةٌ رابعهم كلبهم. وثمّة من يقول : هم خمسةٌ سادسهم كلبهم. وتقرّر الآية الكريمة أنّ أصحاب هذين الرّأيين يقولون بغير علم، ويرجمون بالغيب، ويقذفون بالظّنون. على أنّ ثمّة فريقاً آخر يقول هم سبعةٌ وثامنهم كلبهم. وقد جاءت الواو الّتى تفيد توكيد لصوق الصّفة بالموصوف فى هذا الموضع وحده، وذلك دليلٌ على أنّ هذا الرّأي هو الصّواب، هذا إلى أنّ هذا الرّأي قرّرته الآية الكريمة بعد أن قرّرت أنّ الرّأيين الأوّلين من باب الرّجم بالغيب والقذف بالظّنون.

وتبادر الآية الكريمة بعد أن ذكرت العدد الصّحيح إلى تلقين المصطفى ﷺ ابتداءً، كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة تبعاً، درساً فى التّواضع مع الحصول على العلم الصّحيح. إنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ بأن يقول ويعلن على رءوس الأشهاد : ربّى الّذى لا إله إلاّ هو هو الأعلم بعدّتهم. وتقرّر الآية الكريمة أنّ عدد الّذين يعلمون حقيقة عدد أهل الكهف السّبعة قليل. وقد عرفنا أنّ ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما قد صرّح بأنّه هو من القليل الّذين استثنى الله، كانوا سبعةً

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٠.
(٢) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٠.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٠.

وثامنهم كلبهم [1].

وتنهى الآية الكريمة المصطفى ﷺ ابتداءً، أن يجادل أهل الكتاب فى عدّة أهل الكهف إلاّ جدالاً ظاهراً ونقاشاً محدوداً يقف عند الحقّ الّذى قصّه الله تعالى عنهم فى كتابه العزيز. كما تنهى الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يستفتي ويطلب الفُتْيا فى أهل الكهف أحداً من أهل الكتاب. إنّهم ليس عندهم فى هذا الشّأن شيءٌ من العلم، وكلّ الّذى عندهم رجمٌ بالغيب وقذفٌ بالظّنّ، وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿وإنّ الظّنّ لا يُغْنى من الحقّ شيئاً﴾.

وممّا يلفت النّظر أنّ الآراء الثّلاثة بشأن أصحاب الكهف أعدادها فرديّة، ثلاثة، خمسة، سبعة. وممّا يلفت النّظر كذلك أنّ العدد الحقيقيّ لأصحاب الكهف سبعة. وما أكثر الحقائق الّتى اقترنت بالرّقم سبعة، الرّقم العجيب فى مرتبة الآحاد. ومن هذه الحقائق أنّ السّماوات سبع، والأرضين سبع، والقرآن الكريم أنزل على سبعة أحرف، وأيّام الأسبوع سبعة، والفاتحة سبع آيات، والطّواف والسّعي سبع مرّات، ورمي الجمرات بسبع حصيات، وقوس قُزَح يتألف من سبعة ألوان، وأهل الكهف سبعة[3].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٠.

(٢) سورة النجم ٢٨.

(٣) أشرنا إلى هذه الحقيقة فى كتابنا : تأملات فى سورة الحاقة ١٣٨و١٣٩.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

ولا تقولنّ : يا محمّد[1] .

لشيء : أي لأجل شيء[2] .

إنّى فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله : معنى الكلام : إلاّ أن تقول معه إن شاء الله[3] وهذا تأديبٌ من الله عزّ ذكره لنبيّه ﷺ عهد إليه ألاّ يجزم على ما يحدث من الأمور أنّه كائنٌ لا محالة، إلاّ أن يصله بمشيئة الله، لأنّه لا يكون شيءٌ إلاّ بمشيئة الله. وإنّما قيل له ذلك فيما بلغنا من أجل أنّه وعد سائليه عن المسائل الثّلاث . . . اللّواتي إحداهنّ المسألة عن أمر الفتية من أصحاب الكهف أن يجيبهم عنهنّ غدا يومهم ولم يستثن فاحتبس الوحي عنه فيما قيل من أجل ذلك خمس عشرة حتّى حزنه إبطاؤه، ثمّ أنزل الله عليه الجواب عنهنّ، وعرف نبيّه سبب احتباس الوحي عنه، وعلّمه ما الّذى ينبغى أن يستعمل فى عداته، وخبّره عمّا يحدث من الأمور الّتى لم يأته من الله بها تنزيلٌ فقال : ولا تقولنّ يا محمّد لشيءٍ إنىّ فاعلٌ ذلك غداً كما قلت لهؤلاء الّذين سألوك عن أمر أصحاب الكهف والمسائل الّتى سألوك عنها فسأخبركم عنها غداً إلاّ أن يشاء الله[4] .

واذكر ربّك اذا نسيت : قيل معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له

---

(١) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥١.
(٢) الجلالين.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥١.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥١.

كما قاله أبو العالية والحسن البصرى[1] .

وقل عسى أن يهدين ربّى لأقرب من هذا رشدا : أي إذا سئلت عن شىء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجّه إليه فى أن يوفّقك للصّواب والرشد فى ذلك[2] وقيل إنّ اسم الإشارة «هذا» يعود إلى خبر أهل الكهف ودلالته على نبوّة المصطفى ﷺ[3] .

المعنيّ بالخطاب فى المقام الأوّل المصطفى ﷺ، وكلّ فرد من أفراد أمّته عليه الصّلاة والسّلام معنيٌّ بالخطاب وراء ذلك. إنّه عليه الصّلاة يُنْهَى أن يقول لأجل شىءٍ إنىّ فاعلٌ ذلك غداً أو فى المستقبل القريب أو البعيد، إلاّ أن يشاء الله تعالى لذلك الشّىء أن يفعل، فعليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، أن تقرن قولك بمشيئة الله تعالى، بأن تقول: إن شاء الله تعالى. فإذا حصل منك القول بفعل شىءٍ مستقبلاً ونسيت أن تقول : إن شاء الله تعالى، فعليك أن تذكر ربّك حال ذهاب النّسيان، وإن تأخّر ذلك الذّهاب بأن تقول : إن شاء الله تعالى. وعليك كذلك أن تسأل ربّك دائماً وأبداً بأن تكون قريباً من الرّشاد دائماً، ملازماً للهدى أبدا.

وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾

لبث أهل الكهف فى كهفهم ثلاثمائة سنة شمسيّة، ثلاثمائة وتسع سنين قمريّة. والمعروف أنّ كلّ مائة سنة شمسيّة تزيد عليها المائة سنة القمريّة ثلاث سنوات. «ونعلم الآن بالحساب الفلكى أنّ الثّلاثمائة سنة بالتّقويم الشّمسى تساوى ثلاثمائة وتسعاً بالتّقويم القمرى، باليوم والسّاعة والدّقيقة. وكان التقويم المتّبع أيّام نزول الآيات قمريّاً، فلزم أن يقول القرآن : إنّ السنوات قد ازدادت تسعاً، وهو

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٩ وانظر تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥١.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٩ .
(٣) الجلالين.

الفرق بين التّقويمين. وهذا سرٌّ لم يُعْرف إلاّ الآن »[1] .

قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

أبصر به وأسمع : أبصر : فعل ماضٍ لإنشاء التّعجّب أتى على صورة الأمر مبنيّ على الفتح المقدّر لمجيئه على صورة الأمر. الباء حرف جرّ. والهاء ضميرٌ محلّه القريب الجرّ بالباء ومحلّه البعيد الرّفع على الفاعليّة. الواو عاطفة. أَسْمِع مثل أبصر. وبه مقدّر(٢) ويقول الطّبرى(٣) : «وقوله : ﴿أبصر به وأسمع﴾ يقول : أبصر بالله وأسمع. وذلك بمعنى المبالغة فى المدح، كأنّه قيل : ما أَبصْرَه وأَسْمَعَه وتأويل الكلام : ما أبصر الله لكلّ موجود وأسمعه لكلّ مسموع لا يخفى عليه من ذلك شىء».

مالهم من دونه من ولي : مالخلقه دون ربّهم الّذى خلقهم وليٌّ يلى أمرهم وتدبيرهم وصرفهم فيما هم فيه مصرّفون(٤) .

قل يامحمّد، الله تعالى الّذى بيّن حقيقة لبثهم فى كهفهم أعلم بلبثهم من الّذين اختلفوا فيهم، وفى مدّة لبثهم. له جلّ وعلا غيب السّماوات والأرض فقد أحاط الله تعالى بكلّ شىءٍ علماً. ما أبصر الله تعالى لكلّ موجود، وأسمعه لكلّ مسموع. ليس لخلقه من دونه جلّ وعلا مِنْ وليّ يتولّى أمورهم ويرعى شئونهم، ولا يشرك جلّ وعلا فى حكمه أحداً، فإنّه جلّ وعلا له وحده الخلق والأمر.

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصريّ ٢٩٥ مصطفى محمود دار الشّروق الطبعة الثّانية . بيروت ١٩٧٠م.
(٢) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ١٣٩.
(٣) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٣.
(٤) تفسير الطّبرى ١٥/ ١٥٣.